المحاضرة الرابعة:التنمية الثقافية المستدامة.

تمهيد:

تعتبر المعالم الأثرية بما تحمله من بعد تاريخي وجمالي شـواهد ملموسـة عمّا أبدعه الأسـلاف قديما في جميع مناحي الحياة، وهي بذلك تشـكيل مادي موضـوعي خالي من الذاتية عن أسـلوب معين في العيش ، هذا الأخير الذي أطلق عليه اسـم الثقافة، من هذا المنطلق يتضـح البعد الثقافي للموروث المادي في بعث التنمية في أي مجتمع من المجتمعات.

1- مفهوم الثقافة:

1-1لغة:

هناك من يرى أن الثقافة كلمة ليسـت بالقديمة جاءتنا من أوروبا، وهي تعني العبقرية الأوروبية، فهي ثمرة من ثمار عصـر النهضـة عندما شـهدت أوروبا انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية، وقد رادفت الكلمة الفرنسية Culture المشتقة من الأصل اللاتيني Cultuvar التي تعني الزراعة، فالواقع أن الفرد الأوروبي في تلك الفترة كان إنسان الأرض، وأن الحضارة الأوربية هي حضارة الزراعة لأنها العملية التي تضم بين دفتيها عدداً من الخبرات التي تسير وتنظم إنتاج الأرض.

1-2اصطلاحاً:

العقـائـد والفنون لقـد عرف الأنتربولوجي تايلور TAYLOR الثقـافـة أنهـا ذلـك الكـل المركـب من والأخلاق والعرف وسائر القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع كما عرفها راد كليف براون RAD KLIFF BRAOUNE بقوله أن الثقافة هي العملية التي يكتسـب من خلالها الفرد المعرفة والمهارة والأفكار والمعتقدات والأذواق والعواطف وذلك عن طريق الاتصـال بأفراد آخرين أو من خلال أشـياء أخرى كما أنه يكتسـب الأعمال الفنية. ويمكن التمييز بين نوعين من الثقافة الأولى مادية والتي تدل على كل الماديات التي يصـنعها الإنسـان في المجتمع لسـد حاجياته، أما الثانية فهي الثقـافـة اللامـاديـة أو المعنوية،وهي تتمثل في الأفكـار والمعتقـدات والعلوم والفنون والنمط المعيشي.

وانطلاقاً من الأفكار السـابقة،يمكن القول أن التنمية الثقافية هي التغير التقدمي الذي يزيد من وعي أفراد المجتمع كما وكيفاً،بماله من مقومات حضـارية عريقة،أي المواصـلة في نفس النسـق الثقافي الذي كان سائراً.

2- البوادر الأولى لظهور التنمية الثقافية المستدامة:

تعد التنمية الثقافية من المفاهيم الجديدة التي برزت إلى الوجود بعد حركة الاسـتقلال التي حققتها الدول الإفريقية، حيث ظهر هذا المفهوم بعد العديد من المحاولات الفردية، إلا أن انتشـار تداوله كان بعد مؤتمر "بان دونغ سنة 1955 الذي ناقش ضرورة استعادة الدول الإفريقية لثقافتها بعد مناقشة حق الشـعوب في تقرير مصـيرها ، وفي نفس السـياق يرى الفيلسـوف باولو" فريري "أن المشـكلة الأساسية التي تتعدى الدول النامية بما فيها الدول الإفريقية هي الفقر والجهل والقهر وثقافة الصمت، ويعد التحرر هدف لابد أن يتحقق بحيث يكون ركيزة في أي عملية تنموية تهدف إلى النهوض بها، وتخلصـها من هذه المشـكلة يكون عن طريق تنمية ثقافية تمكّن كل إنسـان وكل شـعب أن يسـتعين بخبراته وتطلعاته وتفكيره وعمله لبلوغ أرقى المراتب في الحضارة.

وبناءًا على ما سبق نلاحظ أن أول ظهور لمصطلح التنمية الثقافية كان في إفريقيا حيث ارتبط بحركة التحرر السياسي، وقد اتصف المفهوم في البداية بالطابع الخطابي حاملا معه بذور البحث عن الهوية الثقافية، ومنذ 1970 أخذ المفهوم طابعه الأكاديمي إثر المؤتمر الذي عقدته منظمة اليونسـكو في البندقية 1970 حول الجوانب المؤسـسية والإدارية والمالية للسـياسـات الثقافية، حيث تمت صـياغة مفهوم التنمية الثقافية بشكل واضح لأول مرة على أساس توسيع وإصلاح المفهوم الاقتصادي للتنمية ومن ثم تعميق مضـمونه في السـياق الخاص للمنظمة الأوربية أولا من خلال المؤتمر الذي عقد على مستوى الحكومات حول السياسات الثقافية الأوربية في "هلسنكي عام 1972، ومن ثم تم توسيع استخدام المفهوم إلى سياق مؤتمر " جاكارتا "وفي إفريقيا من خلال مؤتمر أكرا سنة 1975 وأمريكا اللاتينية والكاريبي من خلال مؤتمر يوغوتا 1978.

استمر عقد المؤتمرات وكان آخرها المؤتمر العلمي لمنظمة اليونسكو للسياسات الثقافية (1980-1983)، وشمل المؤتمر العديد من المسائل منها غايات وأهداف التنمية الثقافية ووسائلها ، ودور القطاع العام والثقافة الدولية وعمل منظمة اليونسكو في التنمية الثقافية، وقد تحولت التنمية الثقافية من مجرد نظرة حماسية إلى مبدأ حركي، حيث أشار المدير العام منظمة اليونسكو أمادو مهاتما "في مؤتمر في أكرا "سنة 1975 أن مدى هذا التحول هام جدا فإن كان النمو الاقتصادي عاملا أساسي في التنمية فإن الاختيارات الثقافية بشكل خاص تحدد بشكل خاص وضعها لخدمة الأفراد والمجتمع بهدف إشباع حاجاتهم وتطلعاتهم المشروعة.

3-الهوية الثقافية:هي تلك التي يتم من خلالها التعرف على جوهر المجتمع البشري من حيث القيم والأفكار والدين واللغة ومكان الحياة والتقاليد والمعتقدات والخبرات المشتركة،ولا تكتمل ولا تبرز خصوصيتها،ولا يمكنها نشدان العالمية إلاَّ إذا توفرت لها مايلي:

أ-الذاكرة التاريخية:باعتبار مخزون الخبرات والمرجع الأصيل لكل تفكير أياً كان مجاله.

ب-الوطن:بوصفه "الأرض أو الجغرافية والتاريخ وقد أصبحا كيانا روحيا واحدا يعمر قلب كل مواطن.

جـ-الأمة:بوصفها النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة،والإرادة الجماعية.

د-الدولة:بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة والجهاز الساهر على سلامتهما ووحدتهما وحماية مصالحهما،وتمثيلهما إزاء الدول الأخرى،في زمن السلم كما في زمن الحرب،فكل مس بالوطن أو بالأمة أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية،والعكس صحيح أيضا كل مس بالهوية الثقافية هو في نفس الوقت مس بالوطن والأمة وتجسيدهما التاريخي.

4-مظاهر التنمية الثقافية للآثار في المجتمع:

-تعتبر المعالم التاريخية والمواقع واللُّقى الأثرية الغث منها والثمين ثروة حضارية بالغة الأهمية لما تحمله من قيم تنفرد بها عن باقي الثروات،حيث تجتمع فيها القيمة الروحية بالجمالية،والعلمية بالرمزية لتقدِّم بصمة فريدةً من نوعها.

-تعتبر شواهد محسوسة تعين الباحث على دراسة تطور الحضارات والفنون عبر الزمن،وهي مادة خصبة للبحث العلمي الأثري،وكذلك لإغناء المعلومات التاريخية،لأنها تلقي الضوء ساطعاً على المستوى الحضاري والثقافي الذي عاش فيه الإنسان إبان فترة من الزمان.

-للموروث المادي دور بارزٌ في تشكيل الفكر والثقافة والعقل،باعتباره المرجع والأصل الذي يحدد الخصوصية الحضارية لأي أمة من الأمم.

-محاربة التأثيرات الناجمة عن العولمة الثقافية التي انبثقت عنها عدّة أنواع منها العولمة المعمارية التي حولت الإنتاج العمراني من عملية ذات منهج إبداعي إلى عملية تحكمها ضوابط وأسس غريبة عن المجتمعات التي تحيا بداخلها، لا لشيء إلا لأنها انبثقت عن ثقافة ليست لها رابط مع ما هو سائد في المجتمعات التي أنجز فيها المبنى، وقد أدَّى ذلك إلى وضع المباني الأثرية التي تعتبر المصدر الأساسي للهوية المعمارية في محيط تغيب فيه قيمه الفنية والتاريخية، لأنها لا تستجيب إلى ما تتطلبه الحياة المعاصرة من الاحتياجات المادية والمعنوية التي ترتبط ارتباطاً وثيقا بالبيئة الحضارية المستوردة من الخارج.

لقد أشار إلى جزء من مضمون هذا الواقع، التلفزيون البريطاني سنة 1986م، حيث ذكر المعماري عبد الباقي إبراهيم (صاحب المنهج الإسلامي في العمارة)،أنه تمَّ تقديم حلقات إعلامية بعنوان العمارة في مفترق الطرق، عالجت مختلف الاتجاهات المعمارية المعاصرة متنقلة بين طرزها وأساليبها التصميمية وقد خصصت من بين تلك الحلقات واحدة حول العمارة الإسلامية، تم الإشارة فيها إلى مميزاتها،وإلى تأثرها العميق بالفكر الغربي الذي تسلل إلى عقول المعماريين نتيجة اختفاء الثقافة المعمارية الأصيلة بسب الاحتكاك مع المعماريين الغربيين، أو زيارة بلدانهم والدراسة فيها ، أو الاطلاع على مشاريعهم في المقالات وغيرها، وذكر أيضا أنه بعد أن سجل الحلقة الخاصة بالعمارة الإسلامية ليقوم بعرضها على زملائه المعماريين بمركز الدراسات التخطيطية والمعمارية لم يحضر إلا نفر قليل، الأمر الذي يعكس الارتباط الشديد للمعماريين بما وصلت إليه الدول الأوروبية، ضنا منهم أنها بلغت سدرة المنتهى في العمارة.